المحاضرة السادسة

البنائية الاجتماعية أو السوسيوبنائية

تتبنى البنائية الاجتماعية أو السوسيوبنائية النظرية البنائية في معناها العام والتي تفسر التعلم على أنه عملية بناء المعرفة ولكنها تفترض أن تطوير الأنشطة المعرفية لا ينفصل عن السياق الاجتماعي والثقافي. وهكذا، تؤكد السوسيوبنائية على الطابع الاجتماعي للتفاعلات التي يقوم بها الفرد المتعلم مع موضوع المعرفة. ويُنظر إلى التعلم على أنه عملية بناء ذهني، لكن الوساطة (أي أشخاص آخرين) والتفاعل هما في مركز التعلم. فيما يلي سنتحدث عن بدايات هذا الاتجاه ومبادئه وأهميته في الإشكاليات المتعلقة بالتعليم.

أصل وخصائص السوسيوبنائية

أصل السوسيوبنائية

يرتبط الأصل النظري للسوسيوبنائية ارتباطًا وثيقًا بفيجوتسكي. فهو ينتقد السلوكية لاهتمامها فقط بالسلوك الذي يمكن ملاحظته وليس بالوعي؛ كما ينتقد الجشطالت لإهمالها عملية منشأ وتحولات البنيات المعرفية؛ كما ينتقد أيضا بياجيه لعدم مراعاة البعد الاجتماعي والثقافي للتعلم. تأثر فيجوتسكي أيضًا بعمل ماركس، حيث يركز على دور الأدوات التي تحتاجها عملية التعلم سواء سيميائية (اللغة) كانت أو مادية، وهي منتجات ثقافية تمرر مخططات فكرية وقيم مجتمعية. من خلال اقتراح مقاربة نفسية اجتماعية للأنشطة المعرفية، فإن السوسيوبنائية تدعو بالتالي إلى التشكيك في النماذج النفسية للتطور المعرفي، التي تتمحور حول الآليات الفردية، وتعيد صياغة مقاربات نظرية تركز بشكل أكبر على الأبعاد الاجتماعية في تكوين الكفاءات. نتيجة لذلك، يدافع فيجوتسكي عن الأطروحة التي تقتضي على أنه لا يمكن أن يكون هناك تطور معرفي بدون التعلم، وبالتالي فإن العمليات التي يعتمد عليها تخضع لتحليل ثلاثي للعلاقات الفرد - المهام – الآخر، أثناء التفاعلات التوجيهية.

خصائص السوسيوبنائية

يمكن تلخيص خصائص البنائية في الأهمية التي توليها للوساطة والتفاعل الاجتماعي. إلى جانب بياجيه، يهتم فيجوتسكي بتنمية التعلم لدى الأطفال، ولكن عندما يتعامل عالم النفس السويسري مع الموضوع على

أساس تجريبي وبيولوجي أكثر، يضع فيجوتسكي الطبيعة الاجتماعية للتعلم في قلب تفكيره. فقد كتب فيجوتسكي في 1932: "من خلال وساطة الآخرين، من خلال وسيط الكبار، ينخرط الطفل في أنشطته.

كل شيء في سلوك الطفل متجذر في المجتمع بالتأكيد. وهكذا، فإن علاقات الطفل بالواقع هي علاقات اجتماعية منذ البداية. لا يستطيع البشر، بحكم أصلهم وطبيعتهم، أن يتواجدوا ولا أن يعرفوا التطور بمعزل عن الآخرين: لهم بالضرورة امتدادا من الآخرين. العالم الاجتماعي ضروري لأنه أصل المفاهيم والأفكار والحقائق والمهارات والمواقف التي يكتسبها الطفل، فهو مكمل للعالم المادي.

من أجل نمو الطفل، تصبح التفاعلات مع البالغين عوامل حاسمة، بقدر ما هم حاملون لجميع الرسائل الثقافية. الثقافة أساسية بمعنى أنها المادة السيميائية هي التي تتوسط في العملية المعرفية. إنها تشكل الوظائف الذهنية العليا (الانتباه الطوعي، والذاكرة المنطقية، والتفكير اللفظي والمفاهيمي، والانفعالات المعقدة، وما إلى ذلك) والتي لا يمكن أن تظهر وتتشكل في عملية التنمية دون الإضافة البناءة للتفاعلات الاجتماعية. بينما بالنسبة إلى بياجيه، تكون التفاعلات مع البيئة مادية ورمزية في الأساس، بالنسبة إلى فيجوفسكي تصبح علائقية (relationnelles).

يعد التعلم من خلال التفاعلات الاجتماعية أمرًا أساسيًا بقدر ما يكتسب المتعلم، بفضل هذه التفاعلات، الأدوات اللغوية والتقنية والتكنولوجية التي تسمح له بتطوير وظائفه الذهنية. تشمل هذه الأدوات، على سبيل المثال لا الحصر، اللغة المكتوبة والمنطوقة، والطقوس أو الشعائر، والأنماط السلوكية في الأعمال الفنية، وأنظمة المفاهيم العلمية، والتقنيات التي تساعد الذاكرة أو الفكر، الأدوات التي تعزز الحراك أو الإدراك الإنساني ، إلخ.

وهكذا، تستطيع اللغة المكتوبة وثقافة الكتاب تغيير بشكل عميق أنماط عمل الإدراك والذاكرة والفكر، لأن هذه الوسيلة تحتوي في حد ذاتها على نموذج لتحليل الحقائق والتقنيات النفسية. وبالمثل، فإن اكتساب أنظمة المفاهيم العلمية يسمح، من خلال إتقان بنيتها، بتعميم إجراءات التسلسل الهرمي للمعلومات، وتجريدها ووضع المفاهيم. ومن هنا يمكننا أن نرى أهمية المكان مثل المدرسة حيث تتركز جهود عمليات الاكتساب. كل هذه الأدوات الثقافية هي "ملحقات للإنسان"، أي تمديدات ومضاعفات للقدرات

الإنسانية. ومن هنا قد يتساءل المرء في عصر التحول التكنولوجي الذي نشهده، ما هي عواقب استخدام الأدوات الرقمية على العمليات المعرفية للفرد؟

مبادئ وأهمية السوسيوبنائية في الإشكاليات المتعلقة بالتدريس

المبادئ:

تعتمد السوسيوبنائية على المبادئ التالية:

- التطور المعرفي ممكن فقط بالتفاعل الاجتماعي ومن خلاله؛
- الثقافة التي تزود المتعلم بالأدوات هي التي تشكل رؤيته للعالم؛
- تلعب الأدوات الثقافية والعلمية (اللغة ، التقنيات ، إلخ) دورًا وسيطًا أساسيًا: فهي تطور وفي نفس الوقت تشكل طريقة تفكير المتعلم؛
- المدرسة هي المكان المفضل لبناء المعرفة.

يتعلم الشخص بشكل أفضل وأكثر في وضعيات التعلم: حيث يمكنه ممارسة الاستقلالية التي هو قادرًا عليها بالفعل؛ والتي يهدف من خلالها إلى رفع مستوى التكيف والاستقلالية في وضعيات الحياة؛ التي بدورها تأخذ في الاعتبار خبرة الشخص السابقة ومعرفته؛ لأن وضعيات الحياة أكثر تعقيدا من القدرات المتاحة للتعلم؛ ولهذا يجب أن يكون لدى الشخص في وضعيات التعلم تجارب فاعلة؛ تتناسب مع مشاريعه الشخصية؛ والتي تدعو إلى التفكير في أداء الفعل؛ والتي تدعم تبادل وجهات النظر بدلا من المواجهة.

أهمية السوسيوبنائية في الإشكاليات المتعلقة بالتعليم

إن خصوصية نظرية فيجوتسكي، التي تجعلها تلهم البيئة التعليمية والتدريبية على نطاق واسع اليوم، هي أنها تتمحور حول إشكالية مدرسية. كما رأينا سابقًا، فإن التوجه الفكري لفيجوتسكي يقود إلى اعتبار المدرسة أكثر من مجرد مكان لاكتساب المعرفة، إنها مكان التفاعلات المميزة حيث يكتسب المتعلم فيها المعارف والمهارات والهوية الذاتية الخاصة بمجتمعه: "لا يقتصر التعليم على التأثير في عمليات التنمية فقط، ولكنه يعيد صياغة بنية جميع وظائف السلوك بشكل أساسي. هذا هو السبب في أن هذا البديل الاجتماعي للبنائية هو مصدر العديد من الإصلاحات المدرسية.